بجانب مرتبة تشعر

عصر الحرية

للأستاذ ابراهيم المطراوي

التحرر نزعة فطرية تلازم الإنسان والحيوان في مختلف أطوار حياته بدرجات تتفاوت قوة وضعفاً تبعاً لتفاوت مداركه ونوع سلوكه بالنسبة للبيئة التي يعيش فيها. تولد هذه النزعة مع الطفل وتبدأ في التعبير عن وجودها بالقدر الذي تستطيعه أعضاؤه من التلبية: فهو حين يمتنع عن ثدي أمه لحظات آلمه أو عدم انسجامه رغم جوعه، وهو حين يركل الفضاء برجله ويحاول التخلص من ملابسه ومن كل حاجز يكبته أو يحد من حركته ونشاطه، فإنما يستجيب بهذا السلوك لنزعة الحرية فيه. والحيوان

— (الرسالة) للكاتب مؤلف نشر بالاسبانية بهذا العنوان

سلبت ليلى مني العقلا
قلت بالليلى ارحمي القتلا

ولا يفوتنا أن ننوه بأن النزل الرقيق سمعه حملت الرسول عليه السلام من الشاعر كعب بن زهير بعد أن أهدر دمه لشدة هجائه المسلمين فقد بدأ كعب قصيدته المعروفة بهذا النزل اللطيف:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غدا البين إذ رحلوا — إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة — لا يشتكي قصر منها ولا طول

هذا وللغزل العنيف سيطرة كبيرة على النفس يسمو بها في سماء المعاني بما يحويه من نصائح غالية وتوجيهات سديدة في قالب من الألفاظ العذبة القوية

على أن استجابة القلوب للغزل شيء قديم كقدم دواعيه، وليس من سبيل إلى إنكار آثاره الأدبية في حياتنا بل في معالجة القلوب المريضة والأفكار البعيدة عن طريق الحق والحياة.

شطانوف — محمد منصور قصر

حين يفلت من القفص أو الربقة وينطلق مسرعاً في طيرانه أو جريه، والوحش حين يفترس فريسته إنما يستجيب بهذا السلوك لنزعة الحرية فيه كذلك

تبلغ هذه النزعة أشدها في أوقات نضوج القوى الجسمية والعقلية بالنسبة للأفراد، وفي أوقات نضوج العمران والمدنية بالنسبة للأمم؛ ولذا نجد دعاة الحرية ومعتنقيها والمتحمسين لها بين الشباب والكهول أكثر ما يكونون، ونجد أن هذه النزعة في الأمم الراقية المتمدنة أظهر ما تكون أيضاً

ولكن شيئاً واحداً قد فات دعاة الحرية ومعتنقيها على مر العصور منذ طفولة التاريخ إلى يومنا هذا وأقصد به الفهم الصحيح لمعنى الحرية، ولهذا كان وجودهم في كل عهد وجدوا فيه مظهراً من مظاهر التفكك والفوضى، ومقدمة لنهاية عهد وبداية عهد جديد

الحرية حريتان: حرية طبيعية وحرية ترفية؛ فالحرية الطبيعية هي تلك التي تدفع الإنسان دفعاً قوياً لالتزام كل سلوك من شأنه أن يحفظ لذلك الإنسان ذاته ودينه وتقاليده وعاداته وكل متعلقاته من تحكم الأجنبي واستعباده؛ فهي نوع من الحفاظ أو الدفاع عن الذات لا أكثر

أما الحرية الترفية فعلى النقيض من ذلك، إذ هي مغالاة في سلوك المحافظة على الذات وانحراف بهذا السلوك بقصد النيل من الغير واستباحة ذاته وانتهاك حرمته والتحكم في تقاليده وعاداته، فهي نوع من الهجوم واسترقاق الآخرين كما يبدو، أو هي نوع من ترف الأقوياء بعبارة أخرى

والناس على اختلاف الأزمنة والأمكنة — يخلطون بين هذين النوعين من الحرية خلطاً عجيباً يدلنا على جهل تام بمعنى الحرية، ولهذا كانت هذه (الحرية) مرادفة للفوضى والإباحية والثورات والانقلابات على نحو ما قدمنا. ولم تجد الحرية الطبيعية سبيلها للظهور إلا نادراً وبين قوم أقوياء سرعان ما تعصف رؤوسهم حميا القوة فتنزو بهم نحو الحرية الترفية، ومن هنا — كما يغلب الظن — جاء حكم ابن خلدون بوم قرر في مقدمة تاريخه أن ازدهار المدنية وزيادة الترف في أمة من الأمم أو عصر من العصور — إيذان بانهيار تلك الأمة ونهاية ذلك العصر. ومن

هنا أيضاً كانت مصلحة المغلوبين فى الاستقامة الخلقية والتمسك بمالديهم من تقاليد ونظم، وتقديس ماورثوه من دين ومثل. وبعبارة أخرى فى العمل على تحقيق الحرية الطبيعية. ومصلحة الغالبين تجئ على العكس من ذلك بالنسبة للمغلوبين وحدهم، أما بالنسبة للغالبين أنفسهم فلابد لهم من تقديس نظمهم وتقاليدهم وأديانهم إذا أرادوا لذاتهم بقاء، ولهذا رأينا سياسة الدول الديمقراطية الكبرى — على اختلاف نزعاتهم — فى هذه الأيام يكررون نداءاتهم بوجوب المحافظة على الفضيلة والتمسك بالأديان حتى تتحقق لهم بذلك القوة التى تتمكن من مواجهة الشيوعية والصمود أمام طغيانها

وفى هذه الأيام أيضاً نجد الصهيونيين يبذرون بذور الفساد والإباحة والإلحاد باسم الحرية فى مختلف البقاع حتى يكتسبوا من ضعف الناس قوة يعيشون بها ومدداً يحقق لهم أمانيهم فى أرض الميعاد؛ وما هذه الأرض إلا العالم أجمع كما يفهم من «تلمودهم» المقدس. ونظرة واحدة إلى تحكمهم فى سياسة دولة كأمريكا، وإلى نوع حياة أبناء صهيون وبناتهم فيها، وكيف يغرون الأمريكان وبردونهم إلى هذه الحياة الماجنة الداعرة ثم يوجهونهم بعد ذلك كيف يشاؤون إلى ما يشاؤون، ونظرة أخرى إلى الأدوار الماثلة التى يقوم بها بناتهم وأبناؤهم فى فرنسا وفى إيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا بل وفى إنجلترا نفسها وغيرها من الدول ترينا خطر سياستهم على العالم أجمع ومقدار أثرها السيئ فى توجيه السياسة العالمية وفى التأثير على كثير من النفوس

وقد اتخذ هؤلاء الصهاينة لأنفسهم فى الأيام الأخيرة اسما تنكريا آخر ظهروا به فى عالم الفكر والفلسفة وصارت لهم دولة فى هذا العالم عرفت باسم (الوجودية) ونعنى بها الوجودية السارترية فى فرنسا تلك التى تعد أخطر مذهب صهيونى ظهر إلى الوجود حتى الآن، وأية خطورة على المجتمع الإنسانى بل وأى جنون أدهى من أن يفسر ذلك الزعيم الفرنسى الوجودية بأنها (الحرية) ويفسر الحرية فى (وجوده وعدمه)، وفى مواضع عدة من مؤلفاته بأنها «التلبية المطلقة التى يتلاشى عندها كل شعور بالاثم»

كل شخص يصادفك فى هذه الأيام لا تجد له حديثا سوى (الحرية) وضرورة الحرب من أجل هذه الحرية سواء أكان هذا الشخص موظفا أم تاجرا أم صانعا أم صحفيا أم مزارعا أم سياسيا أم رجل دين؛ لأن لكل كائن حى رغباته وأطماعه وحاجاته التى لا تنقضى كما يقول الشاعر العربى القديم، ولكل فهمه الخاص لهذه الحرية، ولكل شرعته الخاصة فى تحقيقها. حتى المرأة الذكاء بلغ بها هوس طنطنة التحرر المعاصرة حدا أوهمها أن الأمومة والتدبير وشؤون الزوجية والبيت كلها قيود وعبودية فرضها عليها قوة الرجال، وأن الحرية فى أن تنبذ هذه القيود ليحملها الرجل طوعا أو كرها كى تتزيا بزيه وتتفرغ هى للأحداث الدولية والشؤون المالية ووضع القانون الذى به تلى القضاء والإفتاء، وتسوس الرعية وتعمل ما تشاء ...

كل شىء يفعل باسم الحرية فى هذا العصر: فاللص يسرق باسم الحرية، والمجور والدعارة يروج لهما باسم الحرية، والتاجر يطفف ويغش باسم الحرية، والموظف يدلس ويهمل ويضرب باسم الحرية، والطالب يخرب معهده ويتكع فى الطرقات باسم الحرية، والفتاة تغشى الندوات وتتخذ الأخدان وتفعل المجون باسم الحرية، ورجل الدين يسكت عن المنكر أو يلحد هو فى الدين باسم الحرية، والصحفى يستبيح الحرمات ويهدم التقاليد باسم الحرية، وهكذا كل محرم يؤتى باسم الحرية، والأمر فى حقيقته لا يعدو كونه انحلالا واستباحة وهدما، وفى كلمة واحدة لا يعدو كونه (انتحارا)

وإنك حين تدقق النظر فى هذه الحرية الترفية تجد لها جانبين فى غاية الخطورة: أحدهما سلبى يقوم به سدنة الاستعمار فى الأمم التى يراد القضاء عليها بترويج تلك المفاسد وتزييف هذه الأسماء مما يفت فى عضد هذه الأمم ويقوض أركان تقاليدها ومجتمعاتها، والآخر إيجابى فيه ينقض المستعمر على هذه الأمم بحجة تقويمها وإصلاحها أو الذود عن الهيئة الحاكمة فيها. وما إلى ذلك من مبررات لا حصر لها، ولكل منهم عذره أو كذبه الجميل المستساغ. فالإنجليز يحتلون مصر دفاعا عن الخديو، ويظلون فى الهند حماية للطوائف، ويستأثرون بالسودان رحمة بأهله، ويستعبدون مع الفرنسيس أفريقيا لنشر العلم والمدنية، والأمريكان يقحمون أنفسهم فى كوريا دفاعا عن جنوبها، والروس يحتلون شرق أوربا ويحاولون احتلال العالم كله لنشر الحضارة والسلام فى ربوعه.. وهكذا كل أمة تجهد أن تسود العالم وتتحكم فى أرزاقه وأنفاسه